



د . هادي حسن عليوي

ظل العراق يعيش أوضاعاً تنعدم فيها أبسط الشروط الصحية.. فقد عاشت الولايات العراقية.. وضعاً بيئياً غير صالح للحياة.. إذ اتسمت المدن العراقية بدرجة نفاثتها.. وانعدام أبسط الشروط الصحية..

زاهيك عن كثرة البرك والمستنقعات ذات المياه الراكدة والملوثة.. والمياه الثقيلة القذرة.. التي تنتشر فيها وبمحيطها أنواع الحشرات المضرة والناقلة للأمراض.. ولم تبذل السلطات العثمانية أية جهود ملموسة في ردمها.

– افتقار المدينة العراقية إلى نظام لإسالة المياه.. فمياه الشرب كانت تنقل على ظهور الحيوانات من الأنهار ومصادر المياه القريبة.. ومن الآبار الملوثة داخل البيوت.. ولما وجود لأية وسائل تعقيم لهذه المياه.

– انعدام نظام تصريف المياه التي كان لها الأثر الكبير في انتشار الجراثيم ومختلف الأمراض.. فتخزين المياه القذرة مدة طويلة.. وضعف اهتمام الأهالي بتنظيف أماكنها بصورة مستمرة.. سببت الروائح الكريهة التي أفسدت هواء البيوت.. وفي بعض الأحيان تتسرب هذه المياه القذرة إلى مياه النهر مختلطة مع مياه الشرب.. ذاقتها جميع الأمراض السارية.

– لم تقتصر هذه الحالة على البيوت.. بل تعداها إلى الأماكن العامة كالخانات والحمامات العامة.. فضلاً عن المدابغ المنتشرة قرب الأنهار التي كانت ترمي فضلاتها فيها.. فكانت سبباً إضافياً في انتشار الكثير من الأمراض.

- ما زاد انتشار الأمراض كثرة المقاهي والمطاعم.. المفتقدة إلى أبسط الشروط الصحية.. إضافة إلى عدم وجود فحص طبي للدخول للبلاد.. ولما لوجود أماكن حجر صحي.

- إذن لا مياه صالحة للشرب.. لا مجاري.. فكانت المياه الثقيلة تجري في حفر مكشوفة.. ولما من معالجة للقضاء على الحشرات المنتشرة في كل مكان.. ولما معالجة للنفايات والقمامة.. ولما لرفع ومعالجة لجثث الحيوانات المنتشرة في المدن.. ولما معالجة حقيقية للأمراض المختلفة التي كانت تنتشر بين الناس.. مما تتحول الأمراض إلى أوبئة فتتوقف الحياة.. وتقضي على الكثير من البشر.

- ولم يهتم الولاة العثمانيون بنظافة المدن والأطعمة والمأكولات.. وتعد مبادرة الوالي أحمد توفيق باشا العام 1860 في ولاية الموصل إحدى المبادرات الفريدة من نوعها.. عندما أمر القصابين وأصحاب المأكولات بوضع ستر من المخام (قطعة قماش) على موادهم للمحافظة عليها من الغبار والذباب.. (الله ألك يا شعب العراق)!!

المستشفيات في الولايات العراقية:

حتى سبعينيات القرن التاسع عشر (يعني حتى 1871).. لم تكن في الولايات العراقية الثلاث: (بغداد.. والموصل.. والبصرة).. لا مستشفيات.. ولما حتى مراكز صحية.

- فاقتصرت ممارسة مهنة الطب على بعض المشعوذين والدجالين.. وبعض المتطبيين الذين لا تتجاوز معرفتهم الحقائق البدائية التي تلقوها شفاهاً.. إذ توسع بعضهم في معلوماته من خلال قراءته بعض الكتب القديمة .

أما بالنسبة للقري والأرياف فكانت المصيبة أكبر وأنكى.. فقد مارس المهنة أشخاص لا علاقة لهم بالطب.. بعضهم توارثوها عن آباءهم وأجدادهم.. الذين أيضاً هم ليسوا أطباء البتة.. أما بالنسبة لأطباء الأسنان.. فلم يكن في العراق عموماً أطباء بهذا الاختصاص.. حيث أسندت هذه المهمة إلى الحلاقين.. ويندر وجود الأطباء في الولايات العراقية.. ولما يمكن أن يكون هناك أكثر من طبيب واحد في مركز كل ولاية.

- ولم تكن في بغداد أية مستشفى أو مركز صحي.. حين قرر الوالي مدحت باشا بناء أول مستشفى في بغداد.. ولما كانت خزينة الولاية لا تكفي لبناء هذا المشروع.. ناشد الوالي الأهالي بالتبرع لبناء المستشفى.. فتبرع الأغنياء والوجهاء.. وشيد المستشفى.. وتم افتتاحه العام 1872 وسمي بـ "مستشفى الغرباء".

- وفي العام 1895 تأسس المستشفى العسكري.. في منطقة الميدان ببغداد.. بأمر من وزارة الداخلية العثمانية.. وأفتتح العام 1897 وسمي بـ "مستشفى المجيدية".. تم تخصيصه لمنتسبي الجيش العثماني في العراق.. وكان يديره الأطباء العسكريون الملتحقون بالوحدات العسكرية العثمانية في العراق.

- وفي العام 1901 أنشأ الدوالي زامق باشا الصغير مستشفى مدني ثاني في بغداد.. واشتمل على عدة أقسام (باطنية.. جراحية.. عيون.. نسائية).. وردهاة خاصة للعمليات.. وقسم خاص للمجانين.. إضافة الى صيدلية ملحقة بها.

- وفي العام 1910 افتتح مستشفى أهلي في بغداد شيدها احد أثرياء اليهود ويدعى مستشفى (مير المياهو الميلاس).. حيث عُدت من أفخم المستشفيات وأكبرها آنذاك.

- وفي العام 1912 افتتح مستشفى (دار المعلمين).. كذلك مستشفى (السبع أيكار).. التي أخذت تستقبل جرحى الحرب العالمية الأولى بشكل يومي.

- أما ولاية الموصل فحتى ثمانينيات القرن التاسع عشر بلا مستشفيات.. حيث تم افتتاح أول مستشفى في ولاية الموصل العام 1844.

- وبقيت ولاية البصرة بلا مستشفى أو مركز صحي حتى أواخر القرن التاسع عشر.. حين تقرر جمع التبرعات من الميسورين لإقامة مستشفى تضم عشرين سريراً.. ودار للعجزة تكفي لإيواء (20) عاجزاً.. وجرى افتتاح المستشفى العام 1890.. وسميت بـ (مستشفى الغرباء).. في محلة عز الدين بالبصرة.

- وكانت في البصرة مستشفى البحرية العسكري.. في منطقة الصالحية بشط العرب.. التي اتخذت أيضاً مركزاً للحجر الصحي.

- كل هذه الأوضاع غير الصحية في العراق أدت لانتشار كثير من الجراثيم والمكروبات التي تسبب الأمراض.. وهكذا ينطبق على العراقيين آنذاك المثل القائل: (الطايح.. رايح).

- فقد أصبح انتشار الأمراض الوبائية في كل الولايات العراقية ليس مستغرباً.. تلك الأمراض التي كانت تفتك بالسكان فتكاً ذريعاً.. فعلى سبيل المثال لا الحصر.. تفشى في بغداد وباء الكوليرا (الهواء الأصفى) في الأعوام: 1820 و 1830 و 1865 و 1870 و 1871 و 1881 و 1889 و 1893 و 1916 و 1917.

- فيما تفش الطاعون في بغداد أيضاً وبشكل وبائي في الأعوام : 1783 و 1802 و 1831 و 1867 و 1874 و 1875 و 1877 و 1881 و 1882.

- ناهيك عن الأمراض المعدية الأخرى: كالجذري.. والتيفوئيد.. والديزنتري.. أما الأمراض الجلدية فانتشرت هي الأخرى.. خاصة أيام الشتاء المباردة.

- هذه الأوبئة تفشت بشكل أكثر في ولايتي الموصل والبصرة أيضاً.

- ولم يكن أمام السكان للوقاية من هذه الأوبئة سوى الهروب من المدن الموبوءة إلى أماكن أخرى خالية من المرض.. فعلى سبيل المثال: عندما تفشى مرض الطاعون في بغداد العام 1876 اضطر أهلها إلى ترك المدينة.. والإقامة في مخيمات في الصحراء وخارجها.. (يعني شغله المنازحين ليست جديدة.. ولما داعشية.. بل عسيلية).

بقي أن نقول: إذا كانت الحروب.. والغزو.. والمطائفية.. والإرهاب.. والاختطاف.. وداعش.. تقتل العراقيين الآن.. ففي العراق العثماني كان يقتل العراقيين المجاعة.. والمقحط.. والأمراض والأوبئة.. والفيضانات المدمرة.. وفوك ضيم الله الحروب.. (ملك الله يا عراق).

(ملاحظة): انتظرونا غداً: قصة بلد.. اسمه العراق.. الحلقة الرابعة: (الفيضانات في عراق العهد العثماني).